



مِيزَانُ الْفَتْنَةِ

تأتي الفتنة في ميزان الكتاب والسنة لعدة معانٍ، من أهمها ما يلي:

1 - الفتنة بمعنى الامتحان والاختبار:

ومنه قوله تعالى: {آلم 1 أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ 2 وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَانِيْنِ} [العنكبوت: ٣-١].

ومنها فتنة النساء التي قال الرسول صلى الله عليه وسلم عنها: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» [١].

ومنها فتنة الدنيا ومناصبها وواجهها وزخرفها.

ومنها فتنة الدخول على السلاطين.

ومن ذلك الفتنة بالمصائب والمكاره؛ كما قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥].

2- الفتنة بمعنى الشرك والكفر:

ومنه قوله سبحانه: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٣٩]، وقوله عزوجل: {وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ١٩١].

3- الفتنة بمعنى الأذى والعقاب:

ومنه قوله تعالى: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [الذاريات: ١٣]، وكذلك قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعْكُمْ أَوْ لَيَسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}.

4- الفتنة بمعنى الاقتتال والاختلاف بين الناس:

وهذا كثير في تحذيرات الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام السلف، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «فإني لأرى الفتنة خلال بيوتكم»[2]، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فتنٌ؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي...»[3].

5- الفتنة بمعنى الإثم والضلال:

ومنه قوله تعالى: {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِقَاتِنِينَ ۖ ۖ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِحٌ لِجَهَنَّمِ} [الصافات: 162، 163]، وقوله سبحانه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنَذَنَ لِي وَلَا تَقْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ} [التوبه: 49].

ويقول الأزهري في تهذيب اللغة: «وجماع الفتنة في الابتلاء والامتحان»[4].

ولو تأملنا أنواع الفتنة السابق ذكرها لرأيناها إما أن تكون سبباً في وقوع الإثم فهذا فتنة، أو هي الإثم نفسه، وهذا أيضاً فتنة، أو هي ما يترتب على الواقع في الإثم وهو العذاب في الدنيا والآخرة وهذه فتنة أيضاً[5].

ونستطيع القول إن الميزان الإلهي للفتنة هو حسب معانها السابقة، والموقف منها هو المقت لها والتحذير منها.

والفتنة - إنـ - هي كل ما من شأنه أن يكون وسيلة للوقوع في الإثم الذي يترتب عليه عذاب الله عز وجل: إما بترك واجب، أو فعل محرم من الشرك وما دونه، أو هي الإثم نفسه، أو العذاب المترتب عليه.

وسواء كان هذا السبب دنيا مغربية، أو نساء وأولاداً، أو أذى من الناس وعداها، أو اختلافاً وتفرقاً، أو شبّهات وأفكاراً، أو مصيبة ومكروهاً؛ فكل ما كان سبباً في ترك طاعة الله عز وجل أو فعل محرم يؤدي إلى عذاب الله تعالى فهو فتنة يجب الحذر منها. وقد تكون الفتنة عظيمة؛ كالتي توقع في الكفر والكبائر، وقد تكون دون ذلك.

موازين البشر الموعجة للفتنة:

تنقسم هذه الموازين بالتبسيس في أمر الفتنة، بحيث يتورط أصحاب هذه الموازين في الفتنة التي حذر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم منها، أو ما يترتب عليها من إثم وعقوبة، وبدلأ من اعتراف أصحابها بالواقع فيها، وبدل السبب في النجاة منها؛ فإن أصحاب هذه الموازين يحاولون تأصيل مواقفهم بشبه شرعية يبررون بها شرعية أفعالهم، ويظهرون ذلك بأنه فرار من الفتنة، أو مواجهة وإخماد لها، أو منع من ظهورها.

أخرج البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: «أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا، وأنت ابن عمر وصاحب النبي صلى الله عليه وسلم، مما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي المسلم. فقال: ألم يقل الله: {وَقَاتَلُوكُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: 39] قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله»[6].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي طبيان قال: « جاء رجل إلى سعد فقال له: ألا تخرج تقاتل مع الناس حتى لا تكون فتنة؟ فقال سعد: قد قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم تكن فتنة، فأمّا أنت وذا البطين تريدون أن أقاتل حتى تكون فتنة»[7].

المثال الأول والثاني:

مثالان من فرقتين ضالتين في هذه الأمة:

- إحداهما تركت واجباً شرعاً وشعيرة عظيمة - ألا وهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد - خوف الفتنة بزعمهم؛ وهؤلاء هم المرجئة وأهل الفجور.
- والأخرى ارتكبت محرماً كبيراً بخروجها على الأمة بالسيف - حتى لا تكون فتنة بترك الأمر والنهي بزعمهم - وهؤلاء هم الخوارج ومن شا بهم من المعتزلة ونحوهم.

ومن أحسن ما جاء في وصف هاتين الطائفتين وتفنيدهما موازينهم الموجعة للفتنة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عنهم، حيث يقول: «ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتال أئمة الجور، وأمر بالصبر على جورهم، ونهى عن القتال في الفتنة؛ فأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم يرون قتالهم والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ما ظلّوا هم ظلماً، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة، وهؤلاء يقابلون أولئك» [8].

ويقول في موطن آخر مبيناً أن لزوم جماعة المسلمين ودرء الفتنة لا يعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك قول كلمة الحق: «ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلال بحسب الإمكان. كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وكم من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك، فيرى أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإذاً أن يؤمر بهما جميعاً، أو ينهى عنهما جميعاً، وليس كذلك، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالى: **{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأَمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}** [لقمان: 17].

وقال عبادة رضي الله عنه: «بایعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننزع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم» [9]. فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله، وأمرهم بالقيام بالحق.

وأجل ما يُظن من تعارض هذين تَعْرِضُ الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحاير الذي لا يدرى - لعدم ظهور الحق، وتمييز المفعول من المتروك - ما يفعل إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه» [10].

وإن مما يشبه موازين أهل الإرجاء والفجور للفتنة: ما يرفع اليوم في وجه بعض الدعاة المصلحين الآمرین والناهیین في أكثر بلدان المسلمين من تهم باطلة وإشاعات كاذبة تصفهم بالخوارج تارة، وإثارة الفتنة وزعزعة الأمن تارة، وبالابتداع تارة؛ وكون هذه التهم تصدر من دعاة العلمانية والفساد فهذا أمر متوقع وغير مستغرب، لكن أن يصدر هذا من بعض المتحمسين للعلم والدعوة فإن هذا من العجائب، والعجائب جمة!

إن قومه لله - عز وجل - صادقة مخلصة بعيدة عن التعصب والحزبية والغوغائية لتقود أصحابها إلى صدق الدعاة المصلحين وصحة معتقدهم، وأنهم خائفون على أمتهم، ومشفقون عليها من عذاب الله عز وجل، وليسوا دعاة خروج ولا

بل الفتنة، والله، في ترك الدعوة والأمر والنهي، وإسلام الأمة لأهل الشر والفساد ليفسدوها دينها ودماءها وعقولها وأموالها وأعراضها؛ فـأي الفريقين أحق بالفتنة وزعزعة أمن الأمة؟ الذين يواجهون الفساد والمفسدين لتأمين الأمة على دينها وأعراضها وأموالها، أم الذين يسعون في زعزعة أنها في هذه الضروريات التي هي أساس حياتها وبقائها؟ **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أَوْ أَنَّكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: 82].

فبالله: أين الفتنة والخروج فيمن يحذر الأمة من الشرك وآثاره؟ وأين الفتنة فيمن يحذر الأمة من هبوطها في وحل الرذيلة بما تبثه وسائل الإعلام والمباشر من قتل للأخلاق وتحريض على الفساد، وإغراء المرأة على السفور والعربي وهجر بيتها وعشها واحتلاطها بالرجال؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من الربا والبيوع المحرمة؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من محبة الكافر وموالاة أعداء الله عز وجل؟ إن الفتنة في ترك الناس على هذه المفاسد وغيرها لا يؤمنون ولا ينهون.

وإن وصف الأمراء والناهين بالخروج على جماعة المسلمين مع براءتهم من ذلك هو في الحقيقة فتنة كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – في النقل السابق.

المثال الثالث: تغليب منهج السلامه:

إن من الموازين المختلة للفتنة موازين من يؤثر الراحة، ويغلب السلام على الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله سبحانه؛ وذلك لما فيها من المشاق والأذى على النفس، ويرى أن ذلك من الفتن التي يجب التحذز منها، ويرى الاقتصار في الدعوة على ما لا يجلب على النفس الأذى والمصائب.

وهذا خلل في ميزان الفتنة، وقلة فهم ل السنن الله عز وجل في الابلاء والتحميس؛ قال الله عز وجل عن نصيحة لقمان لابنه: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** [لقمان: 17]، وقال عن سنة الابلاء التي لا تتبدل: **﴿وَلَنَبْلُوْنَكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوْ أَخْبَارَكُمْ﴾** [محمد: 31].

وقال سبحانه عن سنته مع أنبيائه – عليهم الصلاة والسلام – مذكراً بهذه السنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: **﴿وَلَقَدْ كُذَّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرٌ وَلَا مُبَدِّلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيًّا الْمُرْسَلِينَ﴾** [الأنعام: 34].

وشنّع على الذين لا يثبتون عند الأذى في سبيل الله عز وجل فينكحون ويزيغون عند تعرضهم لأذى الناس: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَهَدَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنْ رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾** [العنكبوت: 10].

وفضح الله عز وجل المنافقين الذين احتجوا لترك الجهاد في سبيل الله عز وجل بخوفهم من التعرض للفتنة، فقال: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّنَّ لَيْ وَلَا تَفْتَتِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَلَمَّا جَهَنَّمَ لَمْ يُحِيطَهُ بِالْكَافِرِينَ﴾** [التوبه: 49]، فأخبر سبحانه أن الفتنة الحقيقة التي سقطوا فيها هي تركهم للجهاد، وليس التي أظهرها خوفهم منها.

وفضح سبحانه أولئك الأعراب، الذين ربطوا دخولهم في الإسلام وبقاءهم فيه بتحسن أمرهم المعيشية ونماء أولادهم وأموالهم، فإذا لم يحصل لهم شيء من ذلك وحصل لهم شيء من البلاء تركوا الدين وارتدوا على أعقابهم؛ قال سبحانه: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَانَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ**

والمحض أن من ينظر إلى الابتلاء والعقابات التي تواجه الداعية في طريقه بأنها من الفتنة التي يجب أن تتجنب هو في الحقيقة غالط في ميزانه لفتنة جاهل بسنن الله عز وجل؛ لأن الفتنة في الحقيقة هي ترك الدعوة والأمر والنهي، وعدم مدافعة الفساد وأهله.

وعن الفرق بين سلامة المنهج ومنهج السلام يحدثنا الدكتور عبدالعزيز كامل فيقول: «دعونا نسأل بصراحة: هل يمكن أن توجد دعوة صحيحة وسليمة تبني العمل للإسلام ونصرته ونشره وهي مع ذلك لا تضحي، ولا تنتظر أن تبتلى، أو تواجه الشدائـ والمحنـ، أو تدخل في صراعـات مع الباطلـ؟

نجيب من خالـ نقطـتين:

الأولـ: سـنـنـ اللهـ الـكـوـنـيـةـ:

إن الصراع بين الحق والباطل قائم دائمـاً، موجودـ ما وجدـ البشرـيةـ؛ قالـ تعالىـ: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَّلُ الْوَنَ مُخْتَلِفِينَ} [آلـ ١١٨] إـلاـ مـنـ رـحـمـ رـبـكـ وـلـذـلـكـ خـلـقـهـ وـتـمـتـ كـلـمـةـ رـبـكـ لـأـمـلـأـ جـهـنـمـ مـنـ الـجـنـةـ وـالـنـاسـ أـجـمـعـينـ} [هـودـ ١١٨ـ ١١٩ـ]، فهوـ إـذـنـ سـنـةـ اللهـ فـيـ خـلـقـهـ لـيـمـيـزـ الـخـبـيـثـ مـنـ الـطـيـبـ، وـالـصـادـقـ مـنـ الـمـدـعـيـ؛ قالـ تعالىـ: {وَلَقـدـ فـتـنـاـ الـذـيـنـ مـنـ قـبـلـهـ فـلـيـعـلـمـنـ اللـهـ الـذـيـنـ صـدـقـواـ وـلـيـعـلـمـنـ الـكـانـيـنـ} [الـعـنـكـوـتـ ٣ـ]، وـقـالـ: {وـمـاـ كـانـ لـهـ عـلـيـهـ مـنـ سـلـطـانـ إـلاـ لـنـعـلـمـ مـنـ يـوـمـنـ بـالـآخـرـةـ مـمـنـ هـوـ مـنـهـ فـيـ شـكـ وـرـبـكـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ حـفـيـظـ} [سـبـاـ ٢١ـ]، وـقـالـ: {وـكـذـلـكـ جـعـلـنـاـكـمـ أـمـةـ وـسـطـاـ لـتـكـنـوـنـاـ شـهـدـاءـ عـلـىـ النـاسـ وـيـكـوـنـ الرـسـوـلـ عـلـيـكـمـ شـهـيدـاـ وـمـاـ جـعـلـنـاـ الـقـبـلـةـ الـتـيـ كـنـتـ عـلـيـهـاـ إـلاـ لـتـعـلـمـ مـنـ يـتـبـعـ الرـسـوـلـ مـمـنـ يـنـقـلـبـ عـلـىـ عـقـبـيـهـ وـإـنـ كـانـتـ لـكـبـيرـةـ إـلاـ عـلـىـ الـذـيـنـ هـدـىـ اللـهـ وـمـاـ كـانـ اللـهـ لـيـضـيـعـ إـيمـانـكـمـ إـنـ اللـهـ بـالـنـاسـ لـرـءـوـفـ رـحـيمـ} [الـبـقـرـةـ ١٤٣ـ].

الـثـانـيـةـ: درـاسـةـ تـارـيـخـ الدـعـوـاتـ عـبـرـ الـعـصـورـ:

لـقـدـ فـهـمـ حـمـلـةـ الدـعـوـاتـ وـالـرـسـالـاتـ أـنـ طـرـيقـ الـجـنـةـ مـحـفـوفـ بـالـمـكـارـهـ، وـمـنـ ثـمـ فـإـنـ طـرـيقـ إـلـىـ نـصـرـةـ الـدـيـنـ لـيـعـبرـ بـدـوـنـ تـضـحـيـاتـ، فـهـمـواـ هـذـهـ الـحـقـيـقـةـ الـقـرـآنـيـةـ مـنـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: {أـحـسـبـ النـاسـ أـنـ يـتـرـكـوـاـ أـنـ يـقـولـواـ آمـنـاـ وـهـمـ لـاـ يـفـتـنـوـنـ} [الـعـنـكـوـتـ ٢ـ]. وـهـاـكـمـ بـعـضـ النـماـذـجـ مـنـ الدـعـوـاتـ عـبـرـ التـارـيـخـ:

• أبوـ الـأـنـبـيـاءـ وـخـلـيلـ الرـحـمـنـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ دـعـوـتـهـ لـقـوـمـهـ: لـمـاـ صـدـعـ بـدـعـوـتـهـ فـيـ وـجـهـ الـبـاطـلـ مـعـرـضـاـ نـفـسـهـ – وـهـوـ لـمـ يـزـلـ فـيـ سـنـ الشـيـابـ – إـلـىـ مـخـاطـرـ الصـدـامـ مـعـ قـوـمـ شـدـادـ أـقـوـيـاءـ طـالـمـينـ مـنـ الـمـشـرـكـينـ الـذـيـنـ مـنـهـمـ أـبـوـهـ وـأـهـلـهـ وـقـبـيلـتـهـ؛ لـمـاـ فـاـصـلـ الـبـاطـلـ مـعـلـنـاـ الـبـرـاءـةـ مـنـهـ، وـمـنـ أـتـيـاعـهـ؛ أـلـمـ يـكـنـ أـمـامـهـ طـرـيقـ أـخـرـىـ يـمـضـيـ فـيـهـ بـدـعـوـتـهـ حـفـاظـاـ عـلـىـ شـيـابـهـ، وـأـتـيـاعـهـ وـمـصـلـحةـ دـعـوـتـهـ؛ لـمـاـ لـمـ يـكـتـفـ بـذـمـ الـأـصـنـامـ وـسـبـهـاـ، أـوـ وـعـظـ عـابـدـيـهـاـ وـإـقـنـاعـهـمـ حـتـىـ يـهـدـمـوـهـاـ بـأـنـفـسـهـمـ؛ لـمـاـ لـمـ يـخـترـ الـطـرـيقـ الـأـسـلـمـ، وـيـبـقـ مـقـيـماـ بـيـنـ أـهـلـهـ دـوـنـ أـنـ يـضـطـرـ إـلـىـ قـطـعـ الـصـحـارـىـ وـالـقـفـارـ مـهـاجـرـاـ مـنـ الـعـرـاقـ إـلـىـ الشـامـ؛ إـنـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ اـخـتـارـ الـمـنـهـجـ الـصـحـيـحـ ثـمـ تـحـمـلـ تـبـعـاتـهـ، وـلـهـاـ اـنـتـصـرـتـ دـعـوـتـهـ وـبـقـيـ فـيـ الـعـالـمـيـنـ ذـكـرـهـ؛ قـالـ تـعـالـىـ: {إـنـ إـبـرـاهـيمـ كـانـ أـمـةـ قـاتـلـاـ لـلـهـ حـنـيـفـاـ وـلـمـ يـكـنـ مـنـ الـمـشـرـكـينـ} [الـنـحـلـ ١٢١ـ، ١٢٠ـ]، إـنـهـ سـلـكـ الـطـرـيقـ الـمـسـتـقـيمـ وـلـمـ يـكـنـ بـالـطـرـيقـ الـآمـنـ.

• وـهـذـاـ مـوـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـقـومـ فـيـ قـوـمـهـ بـالـدـعـوـةـ إـلـىـ اللـهـ، وـمـعـ ذـلـكـ يـسـلـكـ طـرـيقـاـ مـمـلـوـقـاـ بـالـصـرـاعـاتـ مـعـ طـغـاةـ الـأـرـضـ؛ فـرـعـونـ وـهـامـانـ، وـيـصـدـعـ بـالـحـقـ فـيـ كـلـ مـكـانـ، وـيـتـحـدىـ وـيـقـبـلـ التـحـديـ، وـيـصـبـرـ عـلـىـ الـمـكـارـهـ وـيـصـبـرـ أـتـيـاعـهـ؛ {قـالـ مـوـسـىـ لـقـوـمـهـ اـسـتـعـيـنـاـ بـالـلـهـ وـاـصـبـرـوـ إـنـ الـأـرـضـ لـلـهـ يـورـثـهـاـ مـنـ يـشـاءـ مـنـ عـبـادـهـ وـالـعـاقـبـةـ لـلـمـتـقـيـنـ} [الـأـعـرـافـ ١٢٨ـ]، وـيـمـضـيـ فـيـ

طريق المواجهة مع الكفر، فإذا ما هلك فرعون وجنوده، استعد لمرحلة أخرى: **{يَا قَوْمَ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنَقْبُوا خَاسِرِينَ}** [المائدة: 21].

• ولقد امتنل قدوة الداعين وإمام المجاهدين محمد صلى الله عليه وسلم للأمر، واهتدى بهدي الأنبياء قبله، فأمضى عمره في بذل دائم، وجهد وجهاد لنصرة دعوة الإسلام، حتى تنزل الوحي يبشره بثمرة جهده في آخر عمره؛ قال تعالى: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [النصر: 1]، ألا نستطيع القول إن النصر لهذه الأمة ولهذه الدعوة عبر التاريخ لم يتم إلا بعد سلوك طريق شاق محفوف بالمخاطر، كله بذل وتضحية؟ بديهي أن نجيب بنعم، وإذا عبرنا تاريخ دعوات الأنبياء لمنظر في سير أتباع الأنبياء - وأفضلهم صاحبة رسوله صلى الله عليه وسلم - فإننا سنرى عجبًا:

- أبو بكر الصديق رضي الله عنه يرسل منادياً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيوم ليتم بعث أسامة، وينفذ الجيش الذي أعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ليبدأ ملاحم الإسلام الكبرى ضد مشركي الروم بعد إنتهاء المعركة ضد مشركي العرب، ثم يستعد أبو بكر في الوقت نفسه لدخول حرب مريرة على مستوى الجزيرة ليرد من ارتد، ويؤدب من ظن أن دعوة التوحيد كلاً مباحً لكل مستهتر عابث.. لم يكن أبو بكر الصديق هياباً من النتائج، ولا وقافاً أمام المصاعب، لم يشأ أن يستمع إلى نصيحة من أشاروا عليه بالانحناء للعاصفة حتى تمر، لكنه عصف بال العاصفة، ثم انطلق يجهز الطلائع لفتح بيت المقدس وإعادة مسجده إلى كنف التوحيد، لقد كان طريقاً صعباً لكنه سهل المهمات على من جاؤوا بعده.

- أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يكن أسهل مراساً من سلفه الجاد المجاهد، لم يقل دعنا نرتب أوراقنا داخل الجزيرة أولاً، أو ننكمي على بناء الذات والحفظ على المنجزات، لا.. لقد سير الجيوش شرقاً وغرباً، ليحضر لأكبر معركتين ضاربيتين يكسر بإحداهما قرون الأكاسرة، وبالثانية يزلزل عروش القياصرة. وقد كان له ما أراد بمعونة الله، فانطلقت نيران فارس، وانكسرت صلبان الروم في أرض الشام، وتم تطهير المسرى الشريف من شرك الرومان؛ ولم تكن تلكم الخدمة العظيمة لدعوة الإسلام لتقى دون فداء ودماء وشهداء.

وإذا قال قائل: تذكرون الأنبياء وهم لا يخطون خطوة إلا بوعي، وتذكرون الصحابة وهم خير القرون حكامًا ومحكمين، فلما نحن في زمن الأزمات من أيام العز والتمكين تلك؟ أقول: سأضرب أمثلة أخرى من أزمنة مختلفة كانت الأمة تعاني فيها أيضًا كزماننا هذا:

- هل ننسى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله تعالى - أيام المغول والتنار؛ حيث استفاضت في العالمين سيرته الجهادية إلى جانب حياته العلمية والدعوية العامرة؟

لقد عاش زمن أزمة مستحكمة لا في بلاده - الشام - فقط، بل عمت العالم الإسلامي بأسره، ولم يكن استيلاء التتار على ذلك العالم في أوضاع صحية أو ظروف سوية في الأمة، بل كان الضعف والتمزق والشتات مستشرياً في جنباتها، بدليل أنه لم يصمد شعب في أرض الاجتياح التترى.. لم يؤثر ابن تيمية السلامة والبقاء بعيداً عن المخاطر، لم يتذرع بالأعذار التي يلقيها مشايخ اليوم..

لم يقل: دع الخلق للخالق، فأنا رجل علم لا رجل جهاد، وكان يمكنه أن يقول: إن الزمان زمان فتن، والتنار الكفار قد استولوا على كل الديار، وما باليد حيلة، أنخالف الأقدار؟ أم نصلح الكون؟

لم يقل: إن الأمة تستحق ما يحدث لها لتفرقها فدعوها تتعلم!

لم يقل: إن الله يعاقب الناس بتسليط حكام الجور والكفر عليهم وكما تكونوا يولى عليكم..

لم يقل: ضاع العلم وضاعت التربية، والآن يجب أن ننشغل بنشر بعض العلم، ونتربي على بعض أنواع التربية التي لا تشكل خطراً على أعداء الله التتار أو الصليبيين أو المرتدين..

لم يقل: هذا الجيل جيل تافه لا علم عنده..

لم يقل: ما لنا وللسياسة التي تفسد الدنيا، أقبلوا على شأنكم معاشر طلاب العلم، فمن الكياسة ترك السياسة لأهل النجاسة..

لم يقل: إن العزلة واجبة لفساد الزمان، ولا حل إلا بمجيء المهدى..

لم يقل: شغر الزمان عن خليفة ولا جهاد إلا بخليفة..

لم يقل: سقطت الدولة الشرعية والرسول صلى الله عليه وسلم لم يبدأ الجهاد إلا بعد إقامة الدولة.

لم يقل: تتغلغل في أوساط التتار وتلتحق ببعض المراكز لتحقق من خلالها بعض المصالح وندرأ بعض المفاسد..

لم يقل: كيف نقاتل التتار وفيهم من يعلن الإسلام ويصوم ويصلى، وهو وإن كان يتحاكم إلى الياسق، ويحارب دونه ويحميه، ولكنه موحد يقول لا إله إلا الله ودمه حرام..

لم يقل: نحن أمة دعوة فلنندع الكفار، ولا نتكلم بغض من له شوكة أو قدرة على أذينا، إنما نتكلم عن الكفار البعيدين أو السابقين..

لم يقل: دار الزمان كهيئته يوم كان المسلمين مستضعفين في مكة، فنحن مستضعفون والتكاليف ساقطة عنا لنصرة الدين وأهله..

لم يقل: لا قدرة لنا على مواجهتهم، فعلينا بالمسايرة والمداهنة والتنازل عن بعض ثوابت الدين؛ كالكفر بالطاغوت، أو الولاء والبراء، أو إثبات الحاكمة المطلقة لله وحده، وعدم الإقرار بأي حكم غير حكم الله.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية وأتباعه الصالحين لم يقولوا شيئاً من هذا، ولكنهم حملوا أعباء الدعوة كاملة، وكانت دعوتهم نبراساً لكل العاملين الصادقين؛ يضيء الطريق أمام الباحثين عن سلامنة المنهج لا منهج السالمة.

وهذا إمام دعوة التوحيد في جزيرة العرب في العصور الأخيرة: الإمام محمد ابن عبد الوهاب - رحمة الله - : هل أكتفى بنصرة هذه الدعوة بمؤلفاته ومناظراته ودروسه فقط؟ أم أنه قاد دعوة لها أبعادها البارزة على المحاور العلمية والسياسية والجهادية؟ ألم تكن للشيخ وإخوانه معارك لنصرة الدعوة ضد من يراهم أعداء لدعوة التوحيد الخالص من أهل الجزيرة وغيرهم؟ هل كان لهذه الحركة أن تعطي هذه الثمار والآثار لو اكتفت بالجوانب العلمية الوعظية، أو التأليفية والتنظيرية مهما كانت نقية وصادفة؟

إنني أدعو إلى إعادة النظر في مفهوم نصرة الدين، ثم إعادة النظر في برامج التحرك من أجل تلك النصرة بشكل متوازن وصادق مع الله ثم مع النفس، لأن الله عز وجل قال عن أقوام أدعوا الصدق في نصرة الدين: **{ولَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْدَأُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَبْيَاثَهُمْ فَتَبَطَّهُمْ وَقَبِيلٌ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاقِعِينَ}** [التوبه: 46]، إننا في حاجة أن نطالب أنفسنا - دعاة وطلبة علم، ومنتمنين إلى هذا الدين حقيقة - أن نعيد قراءة تلك الفصول من تاريخ الدعوة، ثم نقيس عليها مناهجنا لنرى الفرق بيننا وبينهم، فالسلف وأتباعهم كانوا كثيراً ما يقولون: لا نعدل بالسلامة شيئاً.

ولكن مفهوم السلامه عندهم كان يعني نجاة الآخرة، أما عند كثير من المشايخ والجماعات والجمعيات الإسلامية اليوم، فهو

نجاة الدنيا، وسلامة المرتب والوظيفة والمنصب والجاه والمال والمركز والجسد، ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن معنى الوهن الذي يتسبب في غثائية الأمة، قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»^[11]، وفي رواية صحيحة أخرى: «**حب الدنيا وكراهية القتال**»^[12]. وحب الدنيا هو أول فصول منهج السلامة، نسأل الله العفو والعافية^[13].

[1] البخاري (5096)، مسلم (2740).

[2] البخاري (7060)، مسلم (2885).

[3] البخاري (3602)، مسلم (2886).

[4] تهذيب اللغة 14/299.

[5] يرجع لمعرفة أنواع الفتن إلى كتاب: «ففرعوا إلى الله»، للمؤلف.

[6] البخاري (4515).

[7] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، سورة الأنفال، الآية 39.

[8] الآداب الشرعية 1/177.

[9] البخاري في الفتن (7199)، مسلم في الإمارة (1709).

[10] الاستقامة 1/42.41.

[11] أبو داود (4297)، وأحمد: 5/278.

[12] أحمد في المسند: 2/359.

[13] مجلة السنة.

مجلة البيان العدد 331

المصادر: